قبور فوق الأرض

قصة بقلم جورج ١١

خرج من البيت لا يلوي على شيء ، واتجه بخطى سريعة ، يقطع الزقاق الضيق ، ليبلغ الشارع العام حيث يجد في آخره الصيدلية الكبيرة الواسعة . كل ما كان يريده ويفكر فيه ان يصل الى الصيدلية بسرعة ، كي يبتاع الادوية التي أوصى بها الطبيب قبل ان يغادر منزله.

لقد سمع الطبيب يقول له ولابيه وحدهما : « ان الامل في شفائها ضعيف بعض الشيء ، الا اننا سنبذل كل ما في وسعنا . ولم يزد على ذلك بل وعد بالعودة في اليوم الثاني . لذلك كان أمله كله متعلقا بهذه الوصفة الطبية التي كان يمسك بها وهو يهرول في سيره .

وحين بلغ أول الشارع تطلع الى آخره ، فرأى انوار المخازن مضاءة كلها لم يطفأ واحد منها ، فشعر بقليل من الاطمئنان اذ عرف ان الصيدلية لم تغلق بعد وانه لن يضطر الى اضاعة اية دقيقة في البحث عن الصيدلية المناوبة في تلك الليلة . ومن يدري فقد تكون بعيدة في هذه المدينة المترامية الارجاء . غير ان شيئا من الخوف كان يساوره حول ثمن الدواء ، فقد كان في الوصفة اسماء كثير من الادوية ، ومع انه كان في اوائل الشهر ، اي انه قبض راتبه منذ ايام قلائل الا انه كان يعرف ان ليس للراتب بركة كما يقول الناس في مدينته ، وها قد سلخ منه الطبيب بزيارته قسما ، وعسى الا يحتاج الى اطباء آخرين يأتون على البقية الباقية من راتبه .

قال في نفسه « ارجو الا يكون ثمن الدواء غاليا » ولكنه كان يعرف ان هذه امنية بعيدة المنال ، فالادوية غالية الثمن وهو يعرف ذلك حق المعرفة .

ولج باب الصيدلية فبهرته اضواء النيون ومعروضات الواجهات الزجاجية ، وليس يدري لماذا شعر كأنه يدخل ملهى او مقصفا ، وعند ذاك فقط تذكر هذه الجملة التي سمعها قبل ان يغادر البيت، لعلها كانت آخر جملة او الجملة الوحيدة التي نطقت بها امه « لا حاجة للدواء ، اريد قبرا واسعا » لقد تذكر الان هذه الجملة التي قالتها له أمه ولكنه لم يلتفت اليها آنذاك وما وعى لها معنى . ثم ها هي ذي تبرز فجأة في ذهنه وتلح عليه الحاحا شديدا « لا حاجة للدواء ، اريد قبرا واسعا » حقا لقد قالت له امه ذلك ، وهي شبه غافية في فراشها الصغير الذي وضع على المقعد الخشبي الوحيد في البيت فشكل شيئا ما يشبه السرير .

وجره من شروده هذا اندفاع الناس بين داخل وخارج في بهو الصيدلية الواسع ، ورأى نفسه يتقدم نحو الصيدلي القصير الذي كان يرتدي صدارا أبيض ، فترتطم رجله بالميزان الكبير الرابض في الطرف الايمن من الصيدلية ، تفحص الصيدلي الوصفة الطبية ومضى بسرعة من وراء منضدته يلتقط الادوية من الرفوف بمهارة وسرعة مدهشتين ، وعجب في نفسه من سرعة هذا الصيدلي وخشي ان يخطيء وهو في غمرة سرعته تلك فيبدل دواء بدواء .

رصف الصيدلي الادوية على اللوح المرمري امامه وراح يحسب ثمنها ، واضاف بسرعة وهو يضع الادوية في صرة امامه :

– ثلاث وعشرون ليرة وعشرة قروش .

فأطرق قليلا ، لكم ود لو يفاصل الصيدلي ويساومه على عادته كلما دخل متجرا او مخزنا ، ولكنه تمالك نفسه وصرف هذا الخاطر عن ذهنه بقسوة ، ولم يلبث أن رفع نظره الضعيف الى الصيدلي واستجمع شجاعته ثم قال :

– الا يمكن الاستغناء عن بعض هذه الادوية ؟

لا يدري كيف جاءه هذا الخاطر ، الا انه اعجب بهذه الفكرة التي طرأت على باله . فاذا لم يكن هناك مجال لخفض سعر هذه الادوية فليختصر منها على الاقل .

نظر اليه الصيدلي طويلا وهز رأسه عدة مرات ثم قال له وهو ينقر البلاطة المرمرية البيضاء امامه :

– يمكن الاستغناء عنها جميعا .

كان يعرف ان من عادة الصيادلة الا يطيلوا الحديث مع زبائنهم ، ولم يدر لماذا ابدى الصيدلي رحابة الصدر هذه ، أتراه أشفق عليه ، فسأله :

– كيف يمكن الاستغناء عنها ؟

عند ذاك نظر اليه الصيدلي نظرة جامدة كنظرة حامل الموتى ، وفتح الصرة ببطء واشار الى أبرة صغيرة ثم سحبها ووضعها أمام عينيه فكادت تمس أنفه ، وقال له :

– مورفين .

فهز رأسه ولم ينطق بحرف .

فأعاد الصيدلي كلمته بشيء من النزق :

– مورفين !

كان في صوته ما يشبه الصراخ وكأنه يريد ان يقول له «ألا تفهم؟» ولكن عينيه ظلتا معلقتين به كأنهما مسمرتان ، فأدرك انه لم يفهم معنى كلمته فعلا .

من المريضة ؟

– أمي .

– وهل تقيأت ؟

فسارع الى الجواب كأنه وجد في سؤال الصيدلي بشيرا بالبرء :

– نعم ، نعم ، صباح هذا اليوم .

عند ذاك ضرب الصيدلي كفا بكف وتمتم :

– ان انتشار هذا المرض ليدعو الى الخوف والفزع .

ما أعظم هذا الصيدلي الطبيب ، فهو يكاد يساوي الطبيب في فهمه .

– وهل عرفت مرضها ؟

لم يجبه بكلمة بل اعاد الابرة الى الصرة وربطها بتؤدة وقال كمن يخاطب نفسه :

– ابرة كل يومين ، ثم ابرة كل يوم ، ثم ابرتان في اليوم الواحد وهكذا ..

– ولكن الطبيب قال لنا ان هذا الدواء سيخفف عنها المها .

– هذا صحيح ، ولكن المورفين ليس دواء .

– نعم ، لا شك ، ان في العلب الاخرى فيما أظن الدواء .

– مقويات ، مجرد مقويات . اطباء هذا الزمان ، يخدرون الجسم فيضعفونه ، ويعطونه في الوقت نفسه المقويات ، وهم يعلمون حق العلم ان ما من دواء لهذا المرض .

وسأله بلهفة :

ـ وما هذا المرض ؟ انني لا أفهم ؟

قال الصيدلي بلهجة ملؤها البساطة :

ـ السرطان .

فغر فمه دهشة ، ولم يعد يدري ماذا يقول ، ووجد نفسه يناول الصيدلي المبلغ المطلوب ، ويحمل صرة الادوية ، ويمضي .

وحين كاد يبلغ باب الصيدلية التفت فجأة نحو الصيدلي وقال له :

ـ شكرا ، طاب مساؤك .

واشار اليه الصيدلي ان اقترب فاقترب منه محاذرا . فهز الصيدلي رأسه وهو يحدق بعينيه ، وقال له بصوت فيه شيء من المودة والحنو :

ـ تشجع يا فتى فانت رجل .

لم يجبه بكلمة بل انطلق صامتا . كانت الصيدليه خالية من الناس ، وراح أجير الصيدلي يغلق الابواب الجانبية ، وحين انتهى الى الشارع وجد نفسه يخفف من سرعته ويسير ببطء ، غير آبه لهذا الدواء الذي انطلق مسرعا لشرائه مقدرا ان امه ستجد البرء فيه بعد ساعات قليلة .

وعاوده صوت امه وهو يسير مستانيا في ليل الشارع الطويل . العلها كانت تدرك بحدسها ان مرضها هذا لا شفاء منه ، فتمنت امنيتها الاخيرة . وراح يفكر بمعنى كلمتها ، فلم يفهم لها معنى . فيم ارادت قبرا واسعا وما فائدتها منه ؟ الم يكن أجدر بها ان تطلب أمنية اخرى . اية أمنية ؟ لا شك ان الالم كان يضايقها فلم تكن تعي ماتقول . ولكن سرعان ماعاد صوتها الى اذنه قويا حادا كانه صرخة الم تنبعث من فم طفل صغير « اريد قبرا واسعا » وتذكر انها كررتها مرتين ، وكأنما كانت تخاطبه وحده بكلماتها تلك مع ان اباه واخوته كانوا حولها .

وفجأة التمع في ذهنه معنى كلماتها ، حدث ذلك على نحو سريع جدا حتى ليعجز الانسان ان يقدر عظيم سرعته ، كوميض برق ، او رفة جفن خاطفة او مذنب يهوى سريعا من احدى النجوم فتلتقطه نجمة اخرى . آه صحيح ، وهز راسه ، صحيح جدا ، كيف غابت عن ذهنه كل تلك الصور والذكريات التي طالما رددتها امه على مسمعه منذ طفولته الى اليوم ؟

نقل صرة الادوية من يد الى اخرى وعاد بذهنه الى البيت وامه والضيق الذي لازم الاسرة منذ كانت . فاحس بكثير من الشفقة نحو امه ، وشعر بالوقت نفسه بالعجز ، العجز المطبق ، فهو لايستطيع ان يفعل شيئا وان مرتبه بالاضافة الى القليل الذي يكسبه ابوه لايكاد يقوم بأود الاسرة ، وتذكر هذا الضيق الذي يأخذ بخناق الاسرة ، في الليل خاصة، حين يصطدم النيام بعضهم ببعض ، وهم ممددون على فراشهم المبسوط على الارض ، الوالدان والاخوة والاخوات ، يحشرون فراشهم الواحد الى جانب الاخر في هذه الغرفة المستطيلة ذات النوافذ الاربع . لقد قالت له امه عشرات المرات « ليتنا نستطيع ان نستاجر احدى الغرف المجاورة في هذه الدار الواسعة التي تضم خمس اسر ، اذن لاستطعنا ان نتوسع قليلا . » كانت تكرر هذه الامنية ، في اغلب الايام ، ولا سيما حين تشعر بالم في ظهرها من جراء طي الفراش وحملها الواحدة تلو الاخرى، لوضعها خلف الحاجز الخشبي نهارا . واعادة حمل كل فراش ومده مع الاغطية والوسائد ليلا .

وساوره كثير من الدهشة أذ ادرك انه يعرف كل هذه الامور ، ومنذ زمن بعيد ، لطالما كررت امه على سمعه وسمع اخوته القولة المعروفة « الضيق بشع ، والبحبوحة جيدة ولو كانت في القبر » .

وتذكر كيف كانت الاسرة تسارع ، في بعض الايام ، لاحتلال احدى الغرف التي ينتقل منها المستاجرون . كان الجميع يشعرون بشيء من الحرية فيتنفسون بغبطة ، وكانت امه تردد في تلك الظروف خاصة ، « ليتنا نستطيع ان نستاجر غرفة اخرى ، غرفة واحدة اخرى كي ينام ويدرس الاولاد فيها ، ونخصص هذه لي ولزوجي وللطعام والضيوف . ولكن ماأسرع ماكنا نلملم اشياءنا من الغرف التي كنا نحتلها موقتا ، للاسرة الجديدة الوافدة على دارنا الواسعة . قال في نفسه « يا لغبائي، انني متلبد الفكر هذا المساء . » وتاكد انذاك انها قالت كلماتها تلك حقا وهي تعي ماتقول وانه لم يكن مخطئا فيما سمع .

انتهى الى مدخل الحي الضيق الطويل الذي تقع الدار في نهايته . كانت قدماه تثقلتي الوطأة كانهما لاتريدان الوصول الى الدار. وتساءل في نفسه « ترى هل تشفى امه من مرضها ، وهل يستطيع ان يستاجر غرفة اخرى ذات يوم كي تجد الاسرة شيئا من البحبوحة ؟ » الا انه صرف هذه الفكرة عن ذهنه . لم يكن يشغله الان الا شيء واحد ، هو القبر الواسع . ترى هل قدرت امه ان الارض غالية في المقبرة ، غالية جدا ؟ اني له ان يشتري ذراعين من الارض ؟ وافتر فمه عن ابتسامة بريئة . هذا منتهى المحال . اذا ماتت ... واقشعر جسمه لهذه الفكرة ، وصرخ بملء صوته « لا سمح الله » ولكنه عاد يقول في نفسه هامسا اذا ماتت فستدفن في القبر الذي دفن فيه جده وجدته منذ عشرات الاعوام ، ومن يدري ، فان صح مازعم ابوه ، فقد دفن فيه اسلاف الاسرة جميعا . وتخيل العظام القديمة ، في قبر الاسرة ، تلملم نفسها قليلا كي توسع مكانا لزائر جديد ، تماما كما فعل هو واخوته يوم وضعت امه اخته الصغيرة لبضع سنوات خلت .

ضغط على الصرة بكل قوته حتى تعبت رؤوس اصابعه ، واعجب بهذا الدواء الذي يحمله ، الا ما اجهل الصيدلي ، المورفين ، نعم انه يحمل الى امه المورفين ، وفيه الخدر ، الخدر اللذيذ ، لسوف تتخيل نفسها سعيدة ، سعيدة جدا ، في منزل واسع ، في منتهى الجمال والفخامة ، لن تجد المنزل ضيقا ، لا ، ولن تفكر في قبر واسع بعد ذلك. ستجد كل شيء جميلا ،جميلا ، وسيموت ويتلاشى الفقر والجوع والضيق، وسترى انها اصبحت غنية تعيش في بحبوحة واسعة لاحد لها اكبر من المنزل الذي تقيم فيه بكثير .

حين دخل المنزل ، كان ابوه قد احضر الممرضة التي تقطن غير بعيد عن المنزل لتعطي امه الابرة وكان كل شيء جاهزا في انتظار الدواء .

سارعت الممرضة الى ملء المحقنة بمحتوى الابرة ، والتفتت الى امه بعد ان غرزت الابرة في جسمها الجاف واخرجتها برشاقة تدعو الى الاعجاب فقالت لها الجملة التي اعتادت ان تكررها لكل مريض :

ـ فيها العافية !

حلب

جورج سالم

صدر حديثا :

عيناك قدري

قصص

بقلم غادة السمان

الثمن ٣ ل.ل

منشورات دار الاداب